

البعد الإسلامي عند الشعراء الأطباء الأندلسيين في العهد الموحي

- مقارنة وصفية تحليلية -

The Islamic dimension of the Andalusian poets and doctors
in the Almohad era

- An analytical descriptive approach-

طه شقرون : طالب دكتوراه

إشراف الأستاذ الدكتور محمد مرتاض

جامعة تلمسان

ملخص:

يتحدث هذا المقال عن مجموعة من الشعراء الأطباء الأندلسيين في عهد الموحدين، الذين أبدوا تأثرهم بمصدري التشريع الإسلامي: كتاب الله عز وجل وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، والذي انعكس على نتائجهم الشعري، فعلى الرغم من وجودهم في بيئة مترفة عرفت فسادا وإسرافا في الإقبال على الملذات، إلا أنّ أشعارهم في كثير من الأحيان لم تخل من الدلائل المتعلقة بالقرآن الكريم لفظا ومعنى، وبأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وهو ما يتوافق مع ظاهرة الاقتباس التي عكست البعد الإسلامي الحضاري في أشعارهم. الكلمات المفتاحية: شعر، أندلس، أطباء، الموحدون، الإسلام، حضارة.

Summary :

This article talks about a group of Andalusian poets and doctors in the era of the Almohads, who showed that they were influenced by the Islamic law: The Holy Quran and the Sunna of Prophet PBUH, which was reflected in their poetic output, despite their presence in a luxurious environment known by corruption. But their poems often did not detract from the evidence related to the Holy Quran and its meanings, and the Hadeeths of the Prophet PBUH, which is consistent with the phenomenon of citation that reflected the Islamic cultural dimension in their poetry.

.Keywords: poetry, Andalus, doctors, Almohad, Islam, civilization

إنَّه من الصعوبة بما كان أن تجتمع مهمة إنسانية تُحتم على صاحبها إتقانها بإخلاص، مع موهبة أخرى تتملكه هو قبل أن يملكها، فتشغل فكره وعاطفته، وتحيي ضميره وإحساسه، وتستنزف منه وقتا وجهدا وذوقا يتوافق مع حقيقة شخصه ويعبر عن ذاته، وليس هناك أصدق من الشعر في التعبير عن تلك الذات، خاصة إذا كان الشاعر برقة إحساسه، وعذوبة نظمه يتمسك بإنسانية تخلقت في نفسه مع مزاولته الطب، فأمنت فيه روحا صادقة توافقه إلى الشعر، وأنتجت في النهاية طيبيا شاعرا.

لقد عُرف المجتمع الأندلسي في عهد الموحدين بميله إلى الترف والفساد والإسراف في الإقبال على الملذات في كثير من الأحيان، إلا أنَّ الوازع الديني الفطري لم يك ليوقظ أبنائه في لحظة ما بهجر الباطل والرجوع إلى الحق، بنفس تائبة وعزيمة جدية، جعلت المرء يدرك قيمة خالقه وتبّيه، وشرائع دينه القويمة، ولم تكن أشعار الأطباء الأندلسيين - بوصفها سجلا تاريخيا يعكس حياة مجتمعهم - لتخلوا من الدلائل المتعلقة بتأثرهم بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وهذا ما يتجلى في ظاهرة الاقتباس، التي يأخذ فيها المقتبس " كلمة من آية توشيحاً لكلامه، وتزيينا لنظامه، وهو أحسن الوجوه في هذه الصنعة" 1.

إنَّ البعد الإسلامي عند الشعراء الأطباء في هذا العصر، كثيرا ما نجده في غرض الزهد، لما يتضمنه هذا الأخير من أفكار ومعاني تتوافق مع تعاليم الدين الإسلامي الحنيف، لكن هذا لم يمنع بعضاً من الشعراء الأطباء اقتباس مفردات من القرآن الكريم وتضمينها أشعارهم في أغراض كثيرة غير غرض الزهد، فهذا الطبيب الشاعر أبو الحكم بن غلندو الاشيلي، يقول من شعره الغزلي:

وَتَبَرَّجْتُ جُنْحَ الظَّلامِ كأنها شمس تجلّت في دياجي الخندس 2
تَحْتَالُ بَيْنَ لَدَائِهَا فَتَحَالُهَا بدرا بدا بين الجوّاري الكنّس
أرجت بريها الصّبَا فتضوّعت أنفاسها والصبح لم يتنّفّس 3

فالشاعر في قوله الجوّاري الكنّس والصبح لم يتنفس يبدو متأثرا بقوله تعالى: ﴿فَلَا أُفْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوَّارِ الْكُنَّسِ (16) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (17) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (18)﴾ 4، فقد وظّف ألفاظا من القرآن الكريم في تغزله بمحبوبته.

وهذا الطبيب الشاعر أبو العلاء بن زهر يقول من رسالة إخوانية للوزير ابن عبدون:

وفاؤك ما أسنى وفضلك ما أسرى ومجّدك ما أسمى وزندك ما أورى
إذا رُمّت نثرا جئت بالسحر ناثرا وإن حكّت شعرا جئت بالآية الكبرى 5

فالشاعر في قوله الآية الكبرى يبدو متأثراً بقول الله عز وجل: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (17) فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ (18) وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (19) فَأَرَاهُ الْكُتُبَىٰ (20) ﴾ 6.

وهذا الطبيب الشاعر أمية بن أبي الصلت يذكرنا ثوار صفاقس قائلا:

ورب أناس أججوا نار فتنة يُجنبها الأتقى ويصلي بها الأشقى

وجر عليهم جهلهم حلم مالك يرق ويجنو كلما ملك الرقا 7

فالشاعر يبدو مقتبسا من معاني القرآن الكريم ما يخدم فحوى معنى بيته الشعري، وذلك من قوله تعالى: ﴿ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَىٰ (10) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَىٰ (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (12) ﴾ 8، والشاعر نفسه يبدو متأثراً بكلام الله عز وجل في دعوة وجهها لصديقه حيث قال:

والشرط في عشرة أمثالها أن تسقط الحشمة فيما اتفق 9

ففي قوله عشرة أمثالها يبدو مقتبسا من قوله تعالى: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ٥ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (160) ﴾ 10، وهذا الطبيب الشاعر "أبو الحسن علي بن جودي" في شعره الحيني يقول:

سلام الله ربحانا وروحا على تلك المحلة والرباع 11

ففي هذا البيت يظهر الشاعر متأثراً بقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ (89) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (91) ﴾ 12.

كما نجد الطبيب الشاعر "أبو بكر بن زهر" في بيته الوصفي في زهر الكتان يقول:

لو كنت ذا جهل لخلتك لجئة وكشفت عن ساق كما فعلت سبأ 13

مقتبسا ألفاظا من قوله تعالى: ﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ٥ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا ٦ قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ ٧ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (44) ﴾ 14، وفي غرض الرثاء نجد الشاعر الطبيب "ابن باجة" في رثائه لعبد حبشي متأثراً بمعان من الذكر الحكيم حين يقول:

ألا يا رزق والأقدار تجري بما شاءت نشأ أو لا نشاء 15

ولعله استقى معناه من قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ٥ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ٦ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (145) ﴾ 16، والمتأمل في الأغراض الشعرية ذات الأبعاد الإسلامية يجد غرض الزهد احتوى القسط الأوفر من الألفاظ والمعاني المستمدة من القرآن الكريم، فهذا الطبيب الشاعر "أبو جعفر الذهبي" يختتم أبياته الزهدية بالألفاظ ومعاني من الذكر الحكيم حين يقول:

والحمد لله على ما قضى فهذه حكمته في الأنعام 17
وهو ما نجده في قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رُبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (93)18.

إنَّ الأبعاد الإسلامية في أشعار الأطباء الشعراء الأندلسيين خلال عهد الموحدين لم تتجلى في الأخذ من القرآن الكريم فحسب، بل بدا هؤلاء الشعراء متأثرين بالأحاديث النبوية الشريفة أيضا، إذ لا تعارض بين الكتاب والسنة، فما من قارئ لكتاب الله عز وجل إلا ومطلع على السنة النبوية الشريفة، وما تحويه من أحاديث مبيّنة لمعاني الآيات الكريمة ممّا جعل هؤلاء الشعراء يتأثرون بهما على حدّ سواء ويضمنوهما أغراضهم المختلفة، فهذا الطبيب الشاعر "أبو الصلت أميّة بن عبد العزيز" كما وجدناه متأثرا بمعاني القرآن الكريم، نجده مقتبسا من معاني الحديث النبوي الشريف، وذلك في قوله:

أنا المذنب المخطي وأنت فلم تزل تُغمد ما يأتي به المذنب المخطي
وأجدر خلق الله بالعفو والرضا مُحِبُّ آتٍ منه الإساءة في الفرط 19

ففي معنى البيتين ما نجده في الحديث الذي رواه أنس رضي الله عنه، عن النبي عليه الصلاة والسلام، أنّه قال: << كل بني آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون >> 20، فالحديث يأتي مبيّرا للتائب من الذنوب وإن كانت كثيرة، فتوبته الصادقة تمحو ذنوبه، وتجعل رحمة الله تغمده وهذا ما يتوافق مع حال الشاعر في البيتين السابقين.

ويقول أبو الصلت كذلك في موضع آخر رادا على صديقه حينما أرسل له كتابا:

وما السّحر سحر أمراض الجفون ولكنّما السّحر سحرُ البيان 21

فالشاعر يبدو متأثرا بحديث النبي عليه الصلاة والسلام، لما جاءه رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من البيان لسحرا » 22.

وهذا الشاعر الطبيب "أبو عامر بن يَنق الشاطبي" يقدم نصيحة للمرء فيقول:

ما أحسن العيش لو أنّ الفتى أبدا كالبدْر يرجو تماما بعد نقصان

إذْ لا سبيل إلى تخليد مآثرة إذْ لا سبيل إلى تخليد جثمان 23

إنَّ المتأمل في معنى البيتين يجد الشاعر متأثرا بحديث النبي عليه الصلاة والسلام، الذي رواه أنس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: << يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ : يَتَّبِعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ >> 24، ومعنى الحديث : أن الرجل إذا مات تبعه إلى قبره ثلاثة : تبعه

أهله ، وهم أولاده وأقاربه وأهل صحبته ومعرفته ، وتبعه ماله ، كعبيده وإمائه ودابته ، وتبعه عمله ، وهو ما أسلفه من خير أو شر ، فيرجع أهله وماله ، ويبقى معه عمله، وهذا ما يبدو موافقا لما جاء في البيتين السابقين.

فمن هذا العرض الموجز لبعض أشعار الأطباء خلال عهد الموحدين في الأندلس، الذين أبدوا تأثرهم بالقرآن الكريم وبالسنة النبوية الشريفة لفظا ومعنى، ندرك مدى تمسك هذه الفئة بكتاب الله عز وجل وسعة اطلاعهم على أمور دينهم، وإن كان لبعضهم انحراف عن المنهج الصحيح في لحظة من لحظات حياته، إلا أن الفطرة السليمة عادت به إلى الحق، فبدأ البعد الإسلامي جليا في أشعار هؤلاء الأطباء من خلال توظيفهم لظاهرة الاقتباس في جل أغراضهم الشعرية وهو ما عكس تأثرهم الواضح بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

هوامش الدراسة:

- 1- معيار النظار في علوم الأشعار : الزنجاني، عبد الوهاب بن إبراهيم بن عبد الوهاب الخزرجي، تح: محمد علي الحفاجي، دار المعارف، مصر، ج2، ص:109.
- 2- الحندس: الليل الشديد الظلمة.
- 3- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1414هـ-1993م، ج9، ص:245.
- 4- سورة التكويد، الآية: 18، ص: 586.
- 5- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ابن بسام الشنتري، تح: إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت لبنان، 1417هـ-1997م، مج 1، ق:2، ص:229.
- 6- سورة النازعات، الآية: 20، ص: 584.
- 7- ديوان أمية بن عبد العزيز الأندلسي الداني، أبو الصلت، تحقيق: محمد المرزوقي، دار الكتب الشرقية، تونس، 1974 ص:127.
- 8- سورة الأعلى، الآية: 12، ص: 592.
- 9- ديوان أمية بن عبد العزيز الأندلسي الداني، أبو الصلت، ص: 130.
- 10- سورة الأنعام، الآية: 160، ص: 150.
- 11- مطمع الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس: أبو نصر الفتح محمد بن عبد الله، ابن خاقان، دار عمّار ومؤسسة الرسالة، بيروت، 1983م، ص: 365.

- 12- سورة الواقعة، الآية: 88-91، ص: 537.
- 13- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد بن محمد التلمساني المقرئ، تح: إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1968م، ج: 03، ص: 468.
- 14- سورة النمل، الآية: 44، ص: 380.
- 15- نفح الطيب: المقرئ، ج: 7، ص: 19.
- 16- سورة آل عمران، الآية: 145، ص: 68.
- 17- تاريخ الأدب العربي (الأدب في المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين)، عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1982م، ص: 561.
- 18- سورة النمل، الآية: 93، ص: 385.
- 19- ديوان أمية بن عبد العزيز الأندلسي الداني، أبو الصلت، ص: 116.
- 20- سبل السلام (شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام)، دار الفكر: بيروت ج: 4، ص: 179 :
- 21- ديوان أمية بن عبد العزيز الأندلسي الداني، أبو الصلت، ص: 151.
- 22- صحيح البخاري، تح: عبد العزيز بن عبد بن باز، دار الفكر، بيروت، ط1، 1991م، مج 3، ج: 06، ص: 167. 23- 23- نفح الطيب: المقرئ، ج: 3، ص: 596.
- 24- رياض الصالحين من كلام سيّد المرسلين: النووي، تع: محمد ناصر الدين الألباني ومحمد بن صالح العثيمين، مكتبة منصور، غزّة، ط1، ص: 157.